النُدُواتيّة الحادّة
أو المعرفة الواهمة المملّة

دلال البزري

قد يتساءل بعض منتظمي الصلة بالبحث في مجال علوم الإنسان ـ قراءةً أو إنتاجاً ـ عن العلاقة التي تربط البحث العلمي بموضوع «الندوات». وسؤال كهذا مشروع لأنه ليس من بديهيات الأمور أن تتدفّق أسماء يُفترض أن مهنتها هي البحث، على هذا الطوَفان من «الأنشطة» التي لا يخلو يومٌ من تغطية عنها في الصحف اليومية، أو من إعلان عن موعدها ومكانها اللاحقين. فتحت عنوان «دعوات ونشاطات»، تكرّس الصحافة اليومية ما يقارب العمودين لنشر إعلانات درجت على تلقّيها من الجهات المنظّمة للندوات، تحثّ فيها الناس على الحضور إلى مكان توحي بأنه ينتج معرفة؛ فيما تضع في الصفحة نفسها أو في ما يقاربها، صوراً كبيرة ونصاً صغيراً تغطي «الأنشطة» التي سبقت، وقد ساهمت فيها الأسماء نفسها المشارِكة في الأنشطة اللاحقة.

وتساؤل آخر قد يرد على ذهن الأشخاص أنفسهم، منتظمي الصلة بالبحث، أو حتى على ذهن غير المنتظمين منهم، تساؤل يتّصل بالبحث نفسه تعريفاً، وبالباحثين أناساً، وبالأسباب الإضافية التي تحدو إلى ربط بين البحث من جهة والندوات من جهة أخرى. فالبحث كما هو معلوم لدى المتعاطين في شأنه، هو إنتاج معرفة متخصّصة في مجال من مجالات العلوم، وفي ما يخصّنا هنا العلوم الإنسانية. أما الباحث، فهو إنسان يقوم بهذا النشاط بعدما يكون قد تخصّص بواحد من مجالاته. وإذا استثنينا بعض الحالات الخاصة جداً، فإن تخصّصه هذا يفترض به أن يتجاوز نهاية المرحلة الجامعية إلى إعداد شهادة الدكتوراه. وهذه الأخيرة، مهما كان مصدرها، تتطلب بالأصل القيام ببحث طويل المدى... هو التمرين الأخير للخروج إلى سوق الأبحاث المتخصصة، دون اعتراض... وإن كان شكلياً.

صفة البحث إذاً، وصفة الذي يمارسه، يتّصلان بعالم المعرفة عموماً.

بعد هذا، يمكن الإجابة عن التساؤلين بوصف مشهد الندوات والقول: إن الذين يُفترض بهم إنتاج معرفة متخصّصة، ومعظمهم أساتذة جامعيون، أو ما يوازيهم من أشخاص ينتجون معرفة، يتدفّقون على الأنشطة الندواتية على نحو منقطع النظير؛ بل صار بديهياً بالنسبة إليهم الربط بين هذه الأنشطة وبين مهنتهم المبدئية، أي إنتاج معرفة متخصّصة.

إن هدف هذه الورقة هو إعادة النظر في هذه البديهية عبر وصف عالم الندوات الغريب: بأنواعه المختلفة، بموضوعاته وطقوسه، بصلة كل من الإعلام والسلطة به، ثم ببعض مضامينه، وأخيراً بالأسئلة التي يمكن طرحها على الناشطين فيه، متكلّمين ومستمعين ومنظمين... وهو وصف ينطبق بصورة خاصة على خشبة لبنان البحثية.

وقبل ذلك وقفة قصيرة أمام الندوة بوصفها تجمعاً بشرياً ذا غرض محدد: اخترع البشر منذ أتقنوا لغة التفاعل في ما بينهم، أو ربما قبل ذلك، شكلاً من أشكال اللقاء، الموسمي أحياناً، بغية الاستئناس بعضهم ببعض، أو تبادل إنتاجهم (الذهني، الحرفي أو ما شابه)، أو مناقشة الأفكار ـ أو النظريات ـ التي توصلوا إليها... إلخ. والندوة، «العلمية» خاصة، هي واحدة من أشكال هذه اللقاءات الحديثة؛ وقد افترضت بدايةً أن الناشطين فيها هم أناسٌ انكبوا طوال مواسم العمل على موضوع بحثهم، وقد أتوا إلى هذا اللقاء حاملين معهم مشروع هذا البحث، أو بعض ملامحه العامة، أو نتائجه شبه النهائية... بغية التطوير أو الحذف أو التعديل أو الثبوت النهائي...

ومع بعض التوسع، وأخذ فضول البشر وأمزجتهم في الحسبان، يمكن النظر إلى الندوة بوصفها حالة حوار بين منتج البحث ـ أو المعرفة ـ وبين نظرائه، أو بين منتج البحث وبين المهتمين به؛ يلبّيها عادة هذا الشكل من الالتقاء المباشر والحي، وتُشبع في أثنائها حشرية المهتم أو المتابع، أو رغبته في النقاش، وذلك بإرساء قواعد للأخذ والرد يكون الجميع متفقاً عليها. طبعاً إن ما سبق من وصف شديد المثالية، وقد يكون غير حاصل على الإطلاق، ولن يحصل ربما... لكن التذكير به هو فقط من باب الإعادة إلى أصول ممارسة انحرفت نهائياً وبصراحة عن مقصدها الأصلي.

ما هو إذاً المشهد التفصيلي لعالم الندوات؟

نبدأ بالأنواع المختلفة التي ترتدي شكل اللقاء المفترض به أن يجمع الناس بالطريقة المذكورة أعلاه. وهذه الأنواع تتوزع بحسب الذريعة التي استدعتْ الدعوة إلى الجمع. فهناك من يمسك الروزنامة، عشية الحين، ويقول إن التاريخ الفلاني هو ذكرى شيء ما: وعادة تتمحور الذكرى حول معركة عسكرية خيضت في التاريخ القريب، ومعظمها هزائم أو شبه انتصارات [بلفور، حزيران ١٩٦٧، تشرين ١٩٧٣، كامب دايفيد... إلخ]، أو حول ميلاد أو وفاة شخصية أدبية أو فكرية أو سياسية... إلخ. وقد حصل مؤخراً أن حُثّ الناس على التجمّع من أجل «تكريم رواد» في مجال ما، تكريساً ربما لتقليد مستجد أو استباقاً لمواعيد قد تنسى. هناك أيضاً الدعوة من أجل «مناقشة» كتاب صدر حديثاً: يُحضّ فيها الناس على الجلوس والاستماع إلى «كلمات» تلقى حول الكتاب المعني، كتبها ويلقيها أشخاص، لم يقرأوا في الأغلب من الكتاب إلا عنوانه أو خلاصته الواردة في غلافه الخلفي: فأطلوا على الناس بأسلوب مورد يطال الكاتب، إما مدحاً أو ذماً، معوضين بذلك من انعدام وقتهم لقراءة الكتاب المعني والتأمل بمعانيه... فهم كانوا قبل حين ـ يوم أو يومين ـ يحيون ذكرى ما، أو يكرّمون علماً من الأعلام... أو ينشدون واحدة من «نظرياتهم» المعهودة...

أما البقية الباقية من أنواع الندوات، فليس في الإمكان التمييز في ما بينها: إذ من يستطيع القول إن «المؤتمر» يختلف عن «المحاضرة» أو عن «الطاولة المستديرة»؟ ومن في وسعه التمييز بين «لقاءات الحوار» و«الحلقات البحثية» و«الأوراق الفكرية»؟ إلاّ ربما من حيث توزيع الكراسي والطاولات والمذياع، بل أحياناً... شرب القهوة وتدخين السيجارة أو عدمهما؟ بل غالباً ما تجد أن «المواسم الثقافية»، الموزّعة أصلاً على «جلسات» أو «محاور»، تختلط بمناسبات التكريم والذكرى، إلى حد... بات ممكناً القول إن جميع أشكال اللقاء «المعرفي» المذكورة أعلاه هي من باب «الندوة» بالمعنى الواسع جداً للكلمة. أما المشترك في ما بينها، فهو أنها تفتتح بخطاب لـ«راعيها»، يكون دائماً من الرسميين المستجدين ـ أو «مستشاره» ـ أو من الذين يتوقون إلى مواقع أكثر رسمية مما هم عليها. في حين أن الذي يفرّق بين مختلف الأشكال الشكلية لهذه الندوات هو الوظيفة الضمنية التي يوليها لها منظموها أو المشتركون فيها. وهذه الوظيفة متراوحة الأوجه، يمكن أن ترتدي الصفات التالية:

ـ الندوة ـ المنبر: التي تؤمن لـ«باحث» المعني بها مكاناً يرفعه موقتاً عن بقية زملائه، ولو بثلاث سنتمترات.

ـ الندوة ـ التعبئة: البديل من المنشور الحزبي أو المهرجان السياسي اللذين ازدهرا في مرحلة الستينات والسبعينات؛ وصار بفضلها «الباحث» بديلاً من «المثقف الملتزم».

ـ الندوة ـ الموقف: حيث يتوافر، نظراً إلى التقاليد الندواتية الطارئة، الوسيلة اللازمة لإيصال موقف، سياسي غالباً، لكنه مدموغ بوصمة «ثقافية».

ـ الندوة ـ الدعوة: وهي صفة قريبة من سابقتيها، أي «الموقف» و«التعبئة»، لكن عملها يمتدّ على المدى الطويل.

ـ الندوة ـ الاحتفال: تحصل في المناسبة الواردة في الروزنامة، ويمكن أن تتحول إما إلى تعبئة أو إلى موقف... تبعاً لظرف انعقادها.

ـ الندوة ـ مصدر الرزق: هي لا توفر وظيفة من وظائف الندوة؛ منبر، تعبئة، موقف... إلخ. لكن حفيف «أوراقها» يكاد يقارب حفيف الأوراق النقدية.

ـ الندوة ـ الارتقاء المهني.

ويمكن توسيع دائرة الضوء الملقى على هذه الوظيفة الأخيرة برواية الواقعة التالية: طلبت إحدى الجمعيات البحثية في لبنان من أعضائها كتابة سيرتهم العلمية [.C.V]. وعندما تم الاستفسار عما يمكن وروده في هذه السيرة، كان الجواب: مؤلفاتكم ومقالاتكم، إضافة إلى جميع الندوات التي اشتركتم فيها. طبعاً لم يرد في ذهن طالب السيرة العلمية التدقيق في مضامين المداخلات ـ أو حتى عناوينها ـ وإلا لكان اصطدم بفضيحة التكرار اللامتناهي للمضامين أو حتى العناوين في مختلف الندوات التي اشترك فيها صاحب السيرة: كأن يعدّد هذا الأخير في سيرته العلمية سلسلة الندوات التي اشترك فيها، فيقول إن عنوان أولها كان «تاريخ الليبرالية في المشرق»، فيما عنوان الثانية «مدخل إلى فهم الليبرالية المشرقية» والثالثة «الجذور السوسيو ـ تاريخية لليبرالية المشرقية»، والرابعة «الليبرالية المشرقية ـ مشكلات وحلول»، إلى ما هنالك من عناوين قد تصل أحياناً إلى العشرة في العام الواحد.

أما إذا كان كاتب السيرة العلمية أكثر حذقاً، فيكتب بأنه اشترك في خمس ندوات خلال

إحدى السنوات. الأولى عنوانها «الصراع بين التيارات الفكرية المشرقية المختلفة»، والثانية «المسائل الاجتماعية من منظور ليبرالي»، والثالثة «لمحة عن التشكّل التاريخي النهضوي»، والرابعة «الآخر من منظور ليبرالي»... إلخ، وترى وجه حذاقته في تغيير عناوين الورقة الواحدة فحسب، والذي لا يضاهيه إلاّ تبديل طفيف للمضمون [مرهون عادة بالحدث السياسي الطاغي...]، بل حتى أحياناً لمداخل فقراته الأساسية... وهكذا، يكفي الله المؤمنين شر القتال...

نأتي الآن إلى طقوس الندوات، وقد ذكرت بعض ملامحها لماماً، في توزيع الطاولات والكراسي؛ وأعود إليها الآن، إذ من دونها لا تحصل الندوة. فهذه الأخيرة، لتكون «شرعية» أو «عادية»، على الكراسي فيها أن تكون مصطفة بعضها بموازاة بعض كما أمام شاشات السينما. أما الطاولة التي تتّجه إليها أنظار القاعدين على الكراسي، والتي منها يصدر الكلام «العلمي» أو «المعرفي» أو «الثقافي»، فتُعلى إلى فوق قليلاً، لكي تكون واضحة للجميع ملامح الجالس خلفها من منتد ـ أو منتدين ـ فتُحفظ عن ظهر قلب الدُرَر التي تُليت بحفظ وجه صاحبها. ويكفي أن يتناول واحد من المنتدين المذياع، حتى يتكبّده طويلاً الجالسون أمامه على الكراسي المصطفّة، فيما يمتحن صبر الجالس ـ أو الجالسين ـ بالقرب منه لفترة أقل طولاً. فالمُمْسك بالكلمة من هؤلاء هو إله الساعة أو نصف الساعة التي يمْضيها قراءةً لنصّه أو ارتجالاً في كلامه. ينظم عادة هذا الكلام «مدير الجلسة» من «الباحثين» أو «العالمين»، المخضرمين في أحسن الأحوال، أو الناشئين في أسوئها، فارغ الصبر، شديد التدبّر. وقد يحصل أن يتجاوز مالك الكلام الوقت المُتاح، فيرسل إليه وريقة كتب عليها «بقي خمس دقائق...»، فإما أن يتوقف أو لا؛ وذلك بحسب مقامه في كوكبة النجوم «الفكرية»، أو بحسب ارتجاله لنكات يستحسن الجمهور خفّة ظلها، فيطالبون «المدير» بالمزيد... الأمر الذي يدفعنا إلى إضافة «وظيفة» ثامنة للندوات، ألا وهي التهريج.

يبقى المهم، هنا، وهو أن قاعة الندوة منقسمة إلى فئتين من الناس: من يتكلّم ـ أو يقرأ أو يتلو ـ ومن يستمع. والفئة الأخيرة تتحمّل ضجرها على كتفيها، بسبب ما وعدت نفسها به، في أن تتحول هي أيضاً، ولو لبرهة، إلى فئة الممسكين بزمام الكلام، بحجة السؤال أو النقد أو المحاورة أو المساجلة... أما الذي يحصل عندما تحين لحظة التحوّل هذه، فهو أمر فائق الغرابة: فإذا بقي من الوقت والصبر ما يسمح للراغب باقتناص المذياع، يحاول الأخذ بثأره، بأن يتحول من مستمع إلى متكلم، ولو لبضع ثوانٍ، هو الوقت المخصّص لـ«مناقشة» كل ما يود مناقشته: وهو أمر أقر به المحاضر أو المنتدي مبدئياً. إلاّ أن نصيبه من التلعثم كبير، فضلاً عن توتره وتبخّر كلماته في الهواء... لأن المشرفين على الندوة أو قادتها، يبدون تململاً لا هوادة فيه، بأن الوقت ينْساب والناس تريد العودة إلى «أشغالها»، أو بأن «المناقشة» أصلاً تافهة، أو السؤال لا مبرّر له، أو بأن الوقت الذي أتيح للمناقش ما هو إلاّ منّة ربانية، أو بأنه عليه أن يعد نفسه سعيداً لمجرّد أنه أمسك بالمذياع... حتى يصير «المناقش» أو «المساجل» أو «المستفسر» شبيهاً بذاك الدخيل المتطفّل على عالم يشتهي الانتماء إليه من دون أن يملك «المؤهلات» اللازمة للقبول به في هذا العالم. ومن عجائب الأمور أن هذه الواقعة تتكرّر بتكرار الندوات، مع فروقات بسيطة تخصّ عادة زيادة أو نقصان عدد الدقائق المُتاحة للمستمع من كلام... ومع ذلك، ترى أن البارزين من الجمهور الندواتي، يحاولون عبثاً كل مرة اقتناص الفرصة «السانحة» للكلام:

وكأن هناك تواطؤاً ضمنياً بينهم وبين منظّمي الندوات على قواعد الحرمان من النقاش.... الأمر الذي يوحي إليك بأنك إزاء مسرحية غير متقنة الإعداد، لا يتحسن أداء أبطالها إلاّ بالتكرار...

أما إذا كانت الندوة ترتدي شكل «الطاولة المستديرة»، حيث يجلس المنتدون فعلاً حول طاولة مستديرة أو يتحلّقون حول طاولة في شكل ربع مستطيل [يشبه الـ U]، فيكون الاتفاق شبه الضمني سلفاً بأن الذي يتحلّقون حوله هو مَلَك الساعة: يتلو «مداخلته»، ويكون «المناقشون» المفترضون له قد أعدوا رداً عليها... أحياناً بعد الاستماع إليها، ولكن غالباً قبل الاستماع. ذلك أنه في أحسن الأحوال، تكون هذه «المناقشة» نسخة معدّلة ـ وربما غير معدّلة على الإطلاق ـ عن «مداخلات» قام بها «المناقش» في ندوات أخرى (من «مؤتمرات» أو «حلقات دراسة»... إلخ) وتحت عناوين أخرى أيضاً، أو معدلة تعديلاً ذكياً.

وقد حاولتُ في ما مضى، حين كنت أتهيّب منظمي الندوات، أن أشترك في العديد من «الطاولات المستديرة»، لما في رنّتها من نداوة ربما. وفي الجلسة الثالثة من هذه الطاولات، كانت قد نظّمتها هيئة بيروتية ناشطة، بدأتُ أُصاب بضجر لم أقبله على نفسي. لذا قررت معرفة سببه، فقمتُ بمراقبة واحد من مكرري «مداخلاتهم»: فإذا به يجود تلاوته كما يفعل حافظ القرآن الكريم [اللهجة ذات الصفة المقدسة، العيون شبه الغائرة... إلخ]؛ وذلك بعد انكباب طويل على الكتابة في دفتر صغير، وبصورة متواصلة. وقد دفعني فضولي إلى التدقيق بمضامين صفحات هذا الدفتر، فلم أجد فيها سوى أمواج متعاقبة من البحر... كانت تُفصح ربما عما يختلج نفسه من استعجال لأخذ دور الكلام، أكثر مما تُدلي بما يتدبّر من تفكير...

هكذا فإن الطقوس المرافقة للندوة ـ «طاولة مستديرة» كانت أو «محاضرة» ـ لا تكتفي بمخالفة قواعدها المفترَضة، بل ترسي أخرى، أشبه بالضمنية، تنظّم التواصل بين «العارف» وبين الراغب بملاقاته، قريبة من تلك التي يبثّها التلفزيون: الاستماع بالمشاهدة، مقابل «تعليق» أو «مناقشة» أو «احتجاج» عندما يسمح الوقت الميّت بذلك. وفي حالة التلفزيون، يتّسع الوقت الميّت أكثر... لأن الإعلانات التجارية الكثيفة والمحفوظة في الذاكرة تسمح بأخذ الكلام. لكن السؤال الذي ما فتىء يشغل البال هو: هل الضجر بلغ حداً يدفع بالمستمع إلى الندوة والمشاهد لها إلى اللجوء لمزيد من الضجر، ظناً منه بأنه ذاهب نحو مصدر من مصادر المعرفة؟

هذا السؤال، حول الضجر، يفضي بنا إلى التوقف قليلاً أمام العناوين التي تبنّاها منظمو الندوات للقيام بأنشطتهم. وللتحقّق من ذلك، قمتُ بمراجعة أرشيف الصحف اليومية الأساسية اللبنانية (**السفير، النهار، العمل، اللواء**): فوجدتُ أن العام ١٩٨١ هو محطة من حيث التفات الصحف إلى تغطية هذا النشاط، بهذا القدر أو ذاك من الحجم. وهذه العناوين التي جمعتها ليست شاملة، لأن التغطيات الصحافية لم تكن تتسم بـ«المنهجية» التي تعرفها الآن، من حيث نشر الدعوات إلى الندوات ومن حيث تغطيتها وحفظ أهمها في الأرشيف. إليك الآن أهم عناوين الندوات التي أمكن جمعها منذ العام ١٩٨١:

العام ١٩٨١: ـ «المثقفون وتحديات السياسة والمصير».

العام ١٩٨٣: ـ «رؤية الثقافة في لبنان بعد عشر سنوات من الحرب».

ـ «من الجامعة إلى السياسة... فالحرب».

العام ١٩٨٤: ـ «أيام الذاكرة الثقافية: محطات ومفارق».
ـ «بعد البيان الوزاري: أي إصلاح سياسي».
ـ «مشكلة الأوقاف الإسلامية في عهد الانتداب».
العام ١٩٨٥: ـ «محاولات ميدانية في بحوث جامعية».
ـ «الخطاب السياسي في لبنان».
ـ «الثقافة والدين والسياسة وإعادة بناء لبنان».
ـ «الطوائفية اللبنانية في إطار المشروع الصهيوني».
ـ «الذكرى الثالثة للاجتياح، مرحلة الانسحاب الإسرائيلي الأخير في وجهها الحقيقي والمموّه».
ـ «الثقافة السياسية للتعايش اللبناني».
العام ١٩٨٦: ـ «ثقافة الحرب وثقافة لبناء لبنان».
العام ١٩٨٧: ـ «ثقافة الحرب وثقافة لبناء لبنان».
العام ١٩٨٩: ـ «الثقافة والتغيير».
العام ١٩٩٠: ـ «أفكار صالحة للخروج من المأزق الراهن».
ـ «لبنان: تحدّيات مصيرية ومشاريع مواجهة».
ـ «المؤتمر الوطني الرابع للإنماء».
ـ «أي دور للمثقفين والهيئات الثقافية في لبنان؟».
ـ «ثقافتنا العربية وبناء السلم الأهلي».
العام ١٩٩١: ـ «بين الثقافة والحضارة».
ـ «ثقافة الحرب».
العام ١٩٩٣: ـ «المؤتمر الأول للثقافة الشعبية».
ـ «دور لبنان ووظيفته».
العام ١٩٩٤: ـ «المؤتمر الثاني للثقافة العربية».
ـ «المؤتمر الأول لحماية الآثار والمباني التاريخية في لبنان».
ـ «مؤتمر البيئة: واقع وآفاق».
ـ «شهادات مقاومين».
ـ «الكتاب والمكتبات في لبنان».

تثير هذه اللائحة غير المكتملة لعناوين الندوات التي عقدت منذ العام ١٩٨١ وحتى الآن مجموعة من الملاحظات والتساؤلات: أولها يتعلق بالتغطية الصحافية لها، ثم بحفظ هذه التغطية في الأرشيف. فإذا تفحصنا في ذاكرتنا القريبة ما تضجّ به من عناوين وأنشطة «ندواتية»، كان من حقّنا التساؤل عن غياب هذه العناوين في الأرشيف. وقد توجّهتُ بهذا السؤال إلى مدير أرشيف إحدى الصحف اليومية، وكان جوابه بأنه لا يملك سبباً محدداً لعدم الحفظ، سوى أن بعض الندوات ربما لا تكون ذات بال... بحيث لا تتطلّب الحفظ. أما مقياس أهمية الندوة أو

عدمها، والعامل الذي يقتضي التغطية ومن ثم الحفظ، فسوف أعود إليه لاحقاً. فالمهم الآن أن النشاط الندواتي المحموم، لن يجد له إلاّ صدى جزئياً في الذاكرة المكتوبة: وسوف يبقى جلّه محفوراً في الذاكرة الشفاهية الصوَرية، الأمر الذي يخفّف إلى حد بعيد مسؤولية المشاركين فيه، وإمكانية محاسبتهم على الكلام الذي صنع مجدهم «الثقافي»: فإذا حاولتَ يوماً التحقّق في أسباب تحليق بعض الأسماء في سماء المعرفة الضيّق... هل ستجد غير تلاوتها لما كتبته منذ سنوات، تحت العناوين نفسها، أو حتى تحت عناوين معدّلة أو مختلفة؟

أما الملاحظة الثانية، فهي تفرض نفسها على الرغم من عدم شمولية العناوين جميع الأنشطة الندواتية: فالثقافة والمثقف وظيفتهما في كذا وكيت من المواقع أو المستويات هما المحور. أما قدر العظمة الذي يتضمّنه هذا الامتشاق للمواقع والمستويات، مرفقاً بتعبير دائم عن الاضطهاد والملاحقة، فيوضّحه رئيس إحدى الجمعيات المعنية بالكتاب بالقول: «نقيم سلسلة من الندوات والمحاضرات تتّجه في مضمونها للإجابة على ما يُطرح بإلحاح من أسئلة على الصعيد الثقافي تتعلّق بالوطن ومصيره والثقافة ودورهما والكاتب وهمومه والفكر والتراث وما يجري من محاولات لوضع اليد عليها وتوجيهها نحو مفهوم معين يخالفها في واقعها».

هل نحتاج إلى القول إن غلاة الندواتيين ـ ومنهم رئيس الجمعية المذكور أعلاه ـ هم الذين استولوا على الثقافة ومتفرعاتها؟ إذ كيف يفهم سعيهم الكواليسي والمنظم للتنصّب في أنشطة أية «ندوة»، للمشاركة فيها ولو بالاسم؟ وكيف نفسّر عملهم الحثيث من أجل تنظيم ندوات يردّون فيها الجميل لأصدقاء ندواتيين أذعنوا لرغبتهم... أو ليتساووا معهم من حيث «ميزان القوى الندواتي» أو ليأخذوا بثأرهم من «خصوم نداوتيين» تطاولوا على اسمهم ولم يدعوهم إلى المشاركة؟ أما الوقت الذي يقضونه في هذين المسعى والعمل، فهل تصدق أنه يبقي لهم ما يكفي لقراءة تثمر نصاً جديداً أو معدلاً كي لا نقول بحثاً بالمعنى الدقيق للكلمة؟.... يعطي الانطباع ـ مجرد الانطباع ـ بأن «مداخلتهم» القادمة... تلك التي يصْبون إليها، سوف تختلف عن تلك التي سبق و«شاركوا» بذريعتها في واحدة من الندوات؟

لا تراكم معرفياً في الندوات: هذه هي ثالث الملاحظات. فالعناوين، حتى تلك المحفوظة في الأرشيف، متكرّرة... هذا إن لم تكن مضامين العناوين المختلفة متكررة. وليس عامل التكرار هذا شرطاً من شروط «التخصّص» في الندوات، كما سبق، ولمّحت: إذ يمكن الهيئة الثقافية الواحدة أن تنكّب في موسم أو عام، على عنوان، لتقفز من بعده وتقبض على عنوان آخر، بلا إعداد حتى لو كان شكلياً. ويجيب رئيس أحد الأندية الثقافية في لبنان، على ما تثيره هذه الظاهرة من حيرة بالقول: «المحاضرات والندوات والحلقات الدراسية مرتبطة بمعظمها بالوضع السياسي والقضايا المطروحة [...] لذلك لم نَعد في الأعوام الخمسة الأخيرة [التصريح صدر عام ١٩٩٤] قادرين على إعداد برنامج سنوي كامل ومسبق للمحاضرات قبل بداية كل موسم ثقافي».

ولعلّ هذا الوصف الملطّف لأسباب الظاهرة لا يلغي الأضرار التي تلحقها بعملية الإنتاج المعرفي عموماً. وقد حصل لكاتبة هذه السطور ما تخفيه هذه اللطافة من خفّة: ففي العام ١٩٩٣، دعتني إحدى الجمعيات الثقافية في لبنان إلى المشاركة في ندوة حول «حالة العلوم البحثية في مختلف فروع العلوم الإنسانية في لبنان». فقبلت يومها المشاركة، ولكن على

مضض، نظراً إلى قلّة الوقت المُتاح للتحضير للورقة. فالعنوان الذي كنت في صدده، أي «حالة البحوث في العلوم الاجتماعية»، لا يكفيه شهران لتلبيته بصورة مرضية. ولكنني حزمتُ أمري بعد تردّد، وواسيتُ نفسي بالقول إنني لست وحدي أمام مشكلة ضيق الوقت، وإن غيري قد يأتي على القدر نفسه من قلّة الإعداد... وقد أجد هناك، في الندوة، ما يمكن استشفافه من إمكانات لإنقاذ ما يُنقذ. والحال إذاً، أن الأوراق التي قُدّمت إلى هذه الندوة، بما فيها ورقتي، كانت على قدر كبير من العمومية والانطباعية والتقريبية... بحيث أمكن وصف تفاصيل «الحالة البحثية....» في فرع من الفروع، وما ينقضها في آن، من دون أن يرفّ جفن لأحد. وفي نهاية الندوة طُلب من المشاركين فيها وضع ملاحظاتهم واقتراحاتهم لندوة مقبلة: فكتبت أننا كلنا بشر معرضون للأخطاء، وأن ليس أقل تلك الأخطاء فداحةً أننا لم نأخذ الوقت اللازم للاستجابة لعنوان «الحالة....» بالقدر الذي يستأهله. لذا أقترح أن تخصّص الندوة المقبلة، أي بعد عام، للإعداد الجدي، استجابة للعنوان نفسه... فنكون بذلك قد قمنا بأضعف الإيمان. أما المفاجأة التي تلتْ هذه الندوة بعد عام بالضبط، فهي أن الهيئة الثقافية نفسها، عقدت ندوة أخرى، ولكن تحت عنوان «بناء الديمقراطية»، مستجيبة بذلك للـ«قضايا المطروحة» التي ذكرها رئيس النادي الثقافي الوارد تصريحه آنفاً. وبعد ذلك، قد تنظم هذه الهيئة، أو واحدة من زميلاتها الناشطات، ندوة عنوانها «أسباب تأخر العلوم الإنسانية في العالم العربي، وسبل النهوض بها»!

يحيلنا هذا العنوان حول «النهوض»، إلى النقطة الأخيرة، تتعلق بالعناوين التي لم يحفظها الأرشيف المذكور أعلاه، لكنها بقيت في ذاكرة كل ما تتبع تغطيتها في الصحف أو التلفزيون. فهذه العناوين لا تكتفي بالاسترسال بمزاج الساعة السياسي / الفكري... بل هي ثبتت بثبوته، إذ بقي مناخها ذات الطابع المهيب والانتصاري نفسه الذي رسا عليه هذا المزاج منذ نحو عشرين سنة. فمن: «الاصلاح السياسي بين **الممكن و المنشود**» إلى «ثقافتنا الوطنية بين **الواقع والتصوّر**» إلى « **أزمة** البحث والثقافة العربيين» إلى «أوضاعنا السياسية وسط **المنعطف الراهن**» إلى «**أبعاد** الطائفية السياسية، و**سبل** الانقاذ فيها» و«**نحو** سوسيولوجيا أصيلة لواقعنا» و«**رؤية** جديدة للقضايا السياسية **الراهنة**» و«**مراجعة نقدية** للتجربة الوحدوية» و«**تحديات** الثورة المعلوماتية وحالة علومنا **الراهنة**» و«**آفاق** الاستنهاض الثقافي الجديد» و«**مستقبل** الوحدة الوطنية وحقوق الإنسان» تضيع العناوين، فضلاً عن معالجتها طبعاً، في أنماط من العظمة المأساوية... بلا أن يَلوح في الأفق، ولو مرة واحدة، سبب محدّد لتلك العظمة، لا معنى مفصّلاً لهذه المأساوية... اللهم إلاّ ذاك الذي تضيفه طبيعة «الحدث»، موجب انعقاد الندوة. واليوم بالذات، بعد عملية «عناقيد الغضب» الإسرائيلية التأمت كل أسباب العظمة ومعنى المأساوية حول « **الآفاق**...» و« **التحديات**...» والـ« **نحو**...» و«**رؤية**...»... إلخ كل من «مشاركة الشباب...» أو «دورهم...»، ثم «الوحدة الوطنية...» التي «تجلت» في أثناء العملية، وأخيراً «المشروع الصهيوني...» بقيادة شمعون بيريز ومن بعده نتنياهو...

... ثم ينتهي النشاط الندواتي بإيعاز شفهي أو شبه ضمني من المنظمين إلى بعض المشاركين النشيطين، أو ذوي العلاقة القوية بالصحافة، بأن يكتبوا مقالاً حول تلك الندوة في واحدة من الصحف المعنية. وغالباً ما تتم الاستجابة لهذا الطلب بكتابة مقال تحت العنوان الثابت: «**على هامش** «ندوة كذا»؛ يصوغ فيه الكاتب بعض «ثغرات» أو «سلبيات» طفيفة رافقت الندوة... هي دون ما تداوله شفهياً مع منظّميها، يَليها إطراء أعمق جدوى وأوسع مكاناً، لكل ما

يمتْ إلى هذه الندوة بصلة، وذلك أملاً في أن يحجز له مكاناً في الندوة المقبلة... فيستمر اسمه بالصعود إلى تلك السماء التي يشتهي، إذ لا يستطيع تخيل نفسه عاطلاً من العمل الذي صار مع تقادم الزمن وكثرة الاعتياد من صميم نشاطه «البحثي»...

هذا ما يفضي بنا إلى التطرّق إلى الأشخاص المجلّين في عالم الندوات: فقد لمَّحتُ في سطور سابقة إلى التغطية الإعلامية، بمقاييس حجومها وحفظها في الأرشيف. ولعلّ الإجابة التي حملها مدير المركز المذكور تغني عن المدخل: قال إن هناك «ندوات كبرى» و«ندوات صغرى». ولدى التدقيق أيضاً بالكبَر والصغَر، أجاب أن هذا رهن بالأسماء المشتركة في هذه الندوات: فإذا كان فلان من السياسيين «المثقفين» مشتركاً فيها، فلا بدّ من قص التغطية وحفظها في الأرشيف وهي من البديهي أن تكون طويلة. أما إذا كانت الأسماء المشتركة غير ذات بال، فإن التغطية لا تتجاوز بالأصل العشرين كلمة، ولا تستأهل بالتالي الحفظ في الأرشيف. فإذا عكست هذه الإجابة، وتأملت قليلاً بالأسماء التي وصلت إلى السلطة بعدما كانت تمارس النداوتية الحادة بإسهاب، ماذا تجد؟ وزيران وأكثر من ثلاثة نواب إلى البرلمان، قد يلحقهم آخرون في الانتخابات التشريعية المقبلة.... قادمين من عالم النداوتية الحادة، لما في هذا المسار المخصوص من عِبَر يجب الإفادة منها.

فالناشطون في النداوتية الحادة لم يسْلكوا مساراً أفضى بهم إلى السلطة فحسب، بل إن أصول ممارستهم وقواعدها النداوتية كانت شبيهة إلى حد بعيد بأصول وقواعد السلطة السياسية. فاعتلاء منبر الكلام، والبوح بحقائق ثابتة، باسم «معرفة» غير مدقّق بها... ثم إيجاد من يصغي إلى هذا الكلام أو يشاهده... كلها ممارسات أقرب إلى السلطة السياسية من أي شيء آخر...

وبقليل من التخّيل، يمكن مقابلة نشاط الندواتي الحاد، الواعد نفسه بموقع ما في السلطة، بحملة المرشح التقليدي وسط ناخبيه. فالأول أداته الدعاوية تزفيت الطرقات و«توظيف» أبناء فلان وتشييد مدرسة وزيارات تعزية أو تهنئة... إلخ، فيما أدواته البشرية مجموعة من الأنصار المرافقين له والمؤمنين به. أما الثاني فأدواته الدعاوية سحر معرفة مقدسة، سوف تنْتشل رأس السلطة من غيبوبتها الجاهلة، وتبادل الاعتراف بندواتيين ناشئين أو «حلفاء»، بمجرّد الحضور إلى حيث يتلون من مداخلات... هو النظير الثقافي لزيارات التعزية أو التهنئة التي يقوم بها المرشح التقليدي كسْباً لمزيد من الأصوات. فيما أدواته البشرية جمهور المستمعين المريدين الذي، رغم مشاكساته المتقطعة، يمكن تجنيد بعض عناصره كـ«مفاتيح» انتخابية لحملة ناجحة. أما السياسيون ذوو الاهتمام المبْهم بالمعرفة، فقد وعى البعض منهم الصلة الحميمة القائمة بين الندوات والسلطة، فراحوا يتفاعلون مع الأولى بإيجابية مفرطة: ينظمون الندوات، «يرعونها»، يفتتحون جلساتهم الأولى أو يرئسون جلساتهم الختامية، يقدمون «أوراقاً»؛ يوحون بأنهم مستعدون للمشاركة في «أعظمها»... إيحاءً لا يخلو أحياناً من الضغط... إلخ. ومن تبقى من فاعلين في عالم الندوات هذا، أي «الباحثين»، يلتحق بالكوكبة السياسية ـ الثقافية... من موقع من ارتضى لنفسه ما يجهر بعكسه صباحاً ومساءً: أي استقلال الثقافة أو المعرفة أو البحث عن عالم السياسة الضيّق، الأمر الذي يوضّح، وإلى حد بعيد، معنى كلام مدير مركز الأرشيف المذكور أعلاه: أي الصلة التفاعلية القائمة بين الندوة من جهة والتغطية الإعلامية من جهة أخرى، ثم الصلة القائمة بين الندوة والتغطية الإعلامية من جهة تبوؤ «مراكز القرار» أو الاستمرار فيها من جهة أخرى... مع كل ما يقتضي ذلك من ثمن، وأثقله الضجر القاتل الذي يعانيه الشخص المعني بهذه الصلة... والذي في وسعك التقاطه في عبارات وجهه

التي تراوح بين الابتسامة الفارغة أمام العدسة، والتثاؤب المتكرّر عندما تغيب هذه العدسة.

أخيراً، ولكي لا تكون هذه المقالة تجنياً على أحد من الندواتيين الحادين وجماهيرهم، أورد هنا مجموعة من الأسئلة وجهت أولها إلى بعضهم فامتنعوا عن الإجابة عنها. أضعها على الورق الآن، إعفاء لنفسي من مسؤولية تهرّب هؤلاء من التجاوب معها.

المجموعة الأولى من الأسئلة موجهة إلى الندواتي الحاد نفسه:

- كم من الوقت تحتاج إلى إعداد مداخلة في ندوة ما؟
- حول أية موضوعات يمكنك «التدخل»؟
- هل تشترك فعلاً في كل ندوة وافقت على أن يرد اسمك من ضمن المشاركين فيها؟
- هل تنشر مداخلاتك في الصحف؟ في الدوريات العلمية؟ في كتب مشتركة؟ أم لا تنشرها على الإطلاق؟
- هل تدخل عليها تعديلات بعد تلاوتها؟ وإذا حصل أن نوقشت، هل تعدّلها في إثر هذا النقاش أم لا؟
- من أين تستمد يقينياتك؟ وهل الجلوس خلف طاولة المنبر يمنعك من الحيرة؟

أما المجموعة الثانية من الأسئلة، فهي موجهة إلى منظمي الندوات، من هيئات وأندية ومؤسسات:

- كيف تختارون عناوين الندوات؟
- على أي أساس توزّعون محاورها بين المنتدين؟ التخصّص؟ الطوائف؟ الانتماءات السياسية؟ الصلات الخاصة؟
- هل هناك من الأسماء التي تعتبرون مشاركتها ضمانة لنجاح الندوة؟
- هل لديكم مقاييس أخرى لنجاح الندوة؟
- إذا كانت الندوة مموّلة من أية جهة، كيف توزعون بنود ميزانيتها؟
- وهل لهذه الجهة من دور في اختيار عناوين الندوة وأسماء المشاركين فيها؟

أما المجموعة الأخيرة، فهي موجهة إلى «رواد» الندوات:

- لماذا تذهب إلى حضور الندوة؟
- وهل تتلقى دعوة شخصية (بطاقة) لذلك؟ أم تحضر لمجرد الإعلان عنها في الصحف؟
- ما الذي أضافته الندوة إلى معرفتك حول العناوين التي حدّدتها؟ هل تبحث فيها عن تساؤلات؟ إجابات؟
- هل تحب المناقشة؟ وإذا خاب أملك بها مرة أو مرات، فهل تعاود المحاولة؟
- هل تتكلّم على الندوة خارجها؟ ومن أية زاوية تتكلم: أشخاص؟ طقوس؟ مضامين أوراق؟ مناخ عام؟
- هل تصدّق ما يتلى في الندوة من كلام؟
- هل تعود فتقرأ ما يغطي عنها في الصحف؟
- هل حصل يوماً وكنت شاهداً على نقاش حقيقي بعد ندوة ما؟ وما رأيك به؟